

خطبة الجمعة - الخطبة ٥٢٢ : خ ١ - حديث نبوي : من نفس عن مؤمن كربة ٢ - رتبة العلم ، خ ٢ - آسيا امرأة فرعون .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٥-٠٤-٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

الخطبة الأولى:

الحمد لله نحده ، ونستعين به ونسترشد ، ونعود به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهدى الله فلا مضل له ، ومن يضل فلن تجد له وليناً مرشدًا . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، إقراراً بربوبيته وإرغاماً لمن جد به وكفر . وأشهد أن سيدنا محمداً صلي الله عليه وسلم رسول الله سيد الخلق والبشر ، ما اتصلت عين بنظر ، أو سمعت أذن بخبر . اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وعلى ذريته ومن والاه ومن تبعه إلى يوم الدين . اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً ، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه ، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنـه ، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

طريق العلم قد يوصل إلى الجنة و السعادة في الدنيا و الآخرة :

عباد الله انقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، في الخطبة السابقة بدأت بشرح حديث شريف من صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((من نَفْسٍ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرْبَ الدُّنْيَا نَفْسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ يَسِّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسِّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَمَنْ سَرَّ مُسْلِمًا سَرَّهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَاللَّهُ فِي عَوْنَى الْعَبْدُ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنَى أَخِيهِ))

وتنمية الحديث:

((وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتَلَوَّنَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارِسُونَ بَيْنَهُمْ ، إِلَى نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ ، وَغَشِّيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ ، وَذَكَرُهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ ، وَمَنْ بَطَّا بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسْبَةً))

[مسلم عن أبي هريرة]

أيها الأخوة الكرام ؛ من سلك طريقاً : ماذا تعني هذه الكلمة في هذا الحديث ؟
العلماء شرّاح هذا الحديث يقولون : من سلك طريقاً السلوك المادي ، أي خرج من بيته ومشى إلى بيت من بيوت الله ، سلك سلوكاً مادياً بقدميه :
(وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا))

يلتَمِسُ من خلال هذا الذهاب أن يَتَعْرَفُ إلى الله ، أن يَتَعْرَفُ إلى أحكام دينه ، أن يَتَعْرَفُ إلى كلامه . وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا . ارتدى ثيابه وخرج من بيته ، وسار في الطريق . الطريق المؤدي إلى بيت من بيوت الله .

أيها الأخوة الكرام ؛ وبعضهم قال : قد يعني الحديث السلوك المعنوي . أي من حفظ ، ومن قرأ ، ومن ذاكر ، ومن درس ، ومن أعاد ، ومن تابع الأمر ، ومن تأمل ، ومن فكر . بعضهم قال : السلوك المادي إلى بيت من بيوت الله من أجل أن تعرف عن كلام الله شيئاً ، من أجل أن تعرف عن سنة النبي شيئاً ، من أجل أن تعرف أحكام دينك ، أحكام الحلال والحرام ، من سلك طريقاً بقدميه ، يريد من هذا الطريق أن يصل إلى بيت من بيوت الله ، سهل الله له به طريقاً إلى الجنة . فليعلم أن هذا الطريق الذي يطوه بقدميه ، ربما أوصله إلى الجنة ، إلى سعادة الدنيا والآخرة . والمعنى الثاني : أنه من حفظ العلم ، ومن درس العلم ، ومن ذاكر العلم ، ومن قرأ العلم ، ومن تفهم العلم ، ومن تأمل فيما يقرأ . أيضاً هذا هو السلوك المعنوي .

رتبة العلم أعلى الرتب وهي الحاجة العليا في الإنسان :

إذاً ما معنى قول النبي عليه الصلاة والسلام ؟

((سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ))

قال شرّاح الحديث : الله سبحانه وتعالى يسهّل له العلم الذي طلبه . هناك قصة مثيرة جداً يرويها العلماء وهي قصة واقعية ؛ أن رجلاً في مصر أراد أن يطلب العلم وهو في الخامسة والخمسين ، وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب ، تعلم القراءة والكتابة ، وتعلم قراءة القرآن ، وحفظ القرآن ، وطلب العلم ، وما مات إلا شيخ الأزهر ، مات في السادسة والستين .
معنى سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ أي سهل الله عليه هذا العلم .

لعل أول العلم فيه صعوبة ، لكنه إذا سلكه صادقاً يصبح أكبر متعة في حياته . ما من رتبة يرقى بها الإنسان كرتبة العلم ، ورتبة العلم أعلى الرتب ، وهي الحاجة العليا في الإنسان ، وهذه الحاجة إذا طلبتها أكدت إنسانيتك ، أكدت أنك من بني البشر ، أكدت أنك المخلوق الأول ، وأنك المخلوق المكرم ، وأنك المخلوق المكلف ، ارتفعت بطلب العلم من مستوى الحيوانية إلى مستوى الإنسانية ، لأن الله سبحانه وتعالى خصّ الإنسان بهذه القوة الإدراكية ، وما خصّ الإنسان بهذه القوة الإدراكية إلا ليتعرف إلى الله . ما أمرنا أن ندعوه إلا ليستجيب لنا ، ما أمرنا أن نتوب إلا ليتوب علينا . ما أودع فينا هذه القوة الإدراكية إلا من أجل أن نتعرف عليه .

((من سَلَكَ طَرِيقًا يُلتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ))

إما أن يسلك هذا الطريق بقدميه ، أو بمركبته ، أو بمركبته عاممة .

((من سَلَكَ طَرِيقًا يُلتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ))

ومن قرأ العلم في بيته ، ومن تفهم العلم ، وجلس مع إخوانه يذكر حقائق العلم ، تدرس العلم ، حفظ العلم ، تفهم العلم ، تعمق في فهم العلم ، راجع العلم ، ذاكر العلم ، أيضاً هذا هو المعنى الآخر .

العلم بالله و بشرعه يمتع وينفع ويسعد صاحبه في الدنيا والآخرة :

أيها الأخوة الكرام ؛ الله جل جلاله يسهل له هذا العلم . ربما كان هذا العلم على من لا يريده صعباً ، ربما كان طلب العلم على من لا يريده كأن تحفر جبلاً بإبرة ، أما الذي يطلب بصدق وإخلاص فيجعل الله له متعة وسعادة ما بعدها سعادة . لذلك لا تعجب من هؤلاء الذين يعكفون على طلب العلم ويمضون الساعات الطوال في قراءة القرآن ، وفي فهمه ، وفي درسه ، وفي تعليمه ، إنهم منغمون في سعادة لا يعرفها إلا من ذاقها .

على كل هؤلاء الذين يتعلمون علوم الدنيا يغرقون في متعته . مطلق العلم يمتع الإنسان ، لكن هناك علمًا ممتعًا ، وهناك علمًا ممتعًا نافعًا ، وهناك علمًا ممتعًا نافعًا مساعدة في الدنيا والآخرة . العلم بالله والعلم الديني هو العلم الممتع والنافع والمساعد في الدنيا والآخرة . ربما كانت علوم الدنيا تمنع وتتفع صاحبها في الدنيا ، ولا تنفعه في الآخرة ، وربما كان بعض العلوم لا يمتع لكنه ينفع ، بعض العلوم تنفع لكنها لا تمنع ، لكن العلم بالله ، والعلم بشرعه يمتع ، وينفع ، ويسعد صاحبه في الدنيا والآخرة .

((وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يُلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ))

بعضهم قال : أنت إذا عرفت الحقيقة ، وأنت تحب نفسك حباً جماً بسبب حبك لذاتك ، ومعرفتك للحقيقة تلتزم منهاج الله عز وجل ، فإذا عرفت الحقيقة سلكت طريق الحق ، وهذا الطريق يؤدي بك إلى الجنة . وقد يقول أحدهم : إن هذا الحديث مقتبس من قوله تعالى :

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهُلْ مِنْ مُدَّكِّرٍ ﴾

[سورة القمر: ١٧]

الله جل جلاله في عليائه ييسر على قارئ القرآن قراءته ، ويبيسر على متدرجه تدبره ، ويبيسر على متقنه تفهمه ، ويبيسر على مطريقه . الله جل جلاله حينما يعلم أن هذا العبد صادق في طلب العلم ييسر له العلم . بل إن بعضهم قال : إن الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى قرأ حديثاً عن رسول الله هو الذي عطفه إلى العلم ، وكانت عطفته تلك سبب سعادته ، وإسعاد خلق كثيرين . هذا الحديث :

((من طلب العلم تکفل الله برزقه))

[الخطيب في التاريخ عن زياد بن الحرت الصدائي]

ليس معنى هذا أنه يأتيه رزق من السماء كمعجزة ، أو كرامة ، ولكن معنى هذا أن الله سبحانه وتعالى يوفقه في عمله توفيقاً بحيث يبقى له وقت مديد يطلب فيه العلم .

نية طالب العلم تحدد تيسيره أو تعسirه :

أيها الأخوة الكرام ؛ معنى الحديث : هل من طالب علم في عمان عليه . النبي صلى الله عليه وسلم روى عن ربه الحديث القدسي :

((إِذَا مَضَى ثُلُثُ اللَّيْلِ أَوْ نَصْفُ اللَّيْلِ نَزَلَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا جَلَّ وَعَزَّ فَقَالَ : هُلْ مِنْ سَائِلٍ فَأَعْطِيهِ ؟ هُلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرْ لَهُ ؟ هُلْ مِنْ تَابِ فَأَتُوبَ عَلَيْهِ ؟ هُلْ مِنْ دَاعِ فَأُجِيبُهُ ؟))

[امض على عليه عن أبي هريرة]

وهذا الحديث بهذا المعنى ، أي هل من طالب علم فأعينه على طلبه ؟ هل من طالب علم أجعل له هذا الطلب طريقاً إلى الجنة ؟ لكن العلماء يقولون : إن هذا العلم الديني ؛ العلم بالله ، والعلم لشرعه لا يتيسر لطالبه إلا إذا ابتغى به وجهه الكريم ، وابتغى به أن ينتفع به في دنياه وأخراها ، وابتغى به مرضة الله عز وجل ، نية طالب العلم هي التي تحدد تيسيره أو تعسirه .

طلب العلم سبب للهداية والهداية سبب للسلوك القويم :

أيها الأخوة الكرام ؛ طلب العلم سبب للهداية ، والهداية سبب للسلوك القويم ، والسلوك القويم سبب لدخول الجنة .

شيء آخر في الحديث : أنت قد تطلب العلم ، وتجتهد ، وتمضي الوقت في طلبها ، وتسلك الطريق إلى بيوت الله ، وتنقطع من وقتكم الثمين وقتاً ، ربما كان وقت راحتك ، ربما كان وقت جلوسك مع أهلك وأولادك ، ربما كان وقت نزهتك ، نقطع من وقتكم الثمين وقتاً تطلب فيه العلم ، فالله سبحانه وتعالى يعطي أضعافاً مضاعفة ، قال :

((من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم))

[أبو نعيم عن أنس]

وقالوا : إن من ثواب الحسنة الحسنة .

﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدُوا هُدًى﴾

[سورة مریم : ٧٦]

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾

[سورة محمد : ١٧]

وقال بعضهم : من طلب العلم سهل الله له به طريقاً إلى الجنة . أي أنه إذا سار على الصراط اجتازه مسرعاً إلى الجنة . من كان قد طلب العلم في الدنيا ونفعه هذا العلم في طاعة الله عز وجل ، وفي التقرب إليه ، فهو يوم القيمة إذا سار على جهنم على الصراط المستقيم اجتازه مسرعاً كلمح البصر . سهل الله له به طريقاً إلى الجنة ، هذا من معاني الحديث .

ويقول بعضهم : العلم الحقيقي يدل على الله تعالى . لماذا دعا النبي صلى الله عليه وسلم وقال :

((اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع))

[النسائي عن أنس بن مالك]

دخل النبي على بعض أصحابه ، فرأهم متلقين حول رجل ، فقال : من هذا ؟ وهو يعلم من هذا ، سؤال العارف ، فقالوا : نسابه ، قال : وما نسابه ؟ فقالوا: يعلم أنساب العرب . فقال عليه الصلاة والسلام :

((ذلك علم لا ينفع من تعلمه ، ولا يضر من جهل به))

كان عليه الصلاة والسلام يقول :

((اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع))

[النسائي عن أنس بن مالك]

دقق أن لك مكتبة كبيرة جداً ، وعليك امتحان حاسم ، وفي هذه المكتبة كلها كتاب واحد هو الكتاب المقرر لهذا الامتحان ، فهل من العقل أن تقرأ كتاباً آخر ؟ لابد من أن تصنفي ، لابد من أن تقرأ الكتاب الذي تتყع به في دنياك وأخراك ، لابد من أن تطلب العلم النافع ، العلم الذي يقيك الزلل ، العلم الذي يعرفك بالله عز وجل .

العلم النافع هو العلم الذي بعث الله به رسليه وأنزل به كتبه :

أيها الأخوة الكرام ؛ العلم الحقيقي يدل على الله تعالى ، فمن سلك طريق العلم مخلصاً غير منحرف وصل إلى الله . ووصل إلى الله معرفة ، ووصل إلى الله اتصالاً .
ومَنْ سَلَكَ طَرِيقًا . والطريق الحقيقي إلى الله هو العلم ، فمن تعلم العلم الحقيقي مخلصاً غير منحرف نقله العلم إلى الله عز وجل ، نقله نقلة معرفة ، ونقله نقلة صلة بالله عز وجل . قال بعضهم: لا طريق إلى معرفة الله ، والفوز بطاعته ، والوصول إلى رضوانه وبلغ قربه ، ومجاورته في الآخرة ، إلا بالعلم النافع ، الذي بعث الله به رسليه ، وأنزل به كتبه . لا سبيل إلى معرفة الله ، ولا إلى الفوز بطاعته ، ولا إلى الوصول إلى رضوانه ، ولا إلى بلوغ قربه ، ولا إلى مجاورته في الآخرة إلا بالعلم النافع الذي بعث الله به رسليه ، وأنزل به كتبه .
هذا العلم النافع سماه الله نوراً . أنت بحاجة ماسة - وأنت تمثلي في ظلمات بعضها فوق بعض - إلى نور كشاف لك الطريق ؟ يكشف لك معالم الطريق ؟ يكشف لك الحفر المخيفة ؟ يكشف لك النتوءات والأكمات ؟ يكشف لك الوحوش الضاربة ؟ وأنت في طريق غابة ليلاً أنت بحاجة إلى نور يكشف لك الحقائق ؟ الله جل جلاله سمي العلم الذي جاء به الرسل نوراً ، قال تعالى:

﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُّلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلْمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

[سورة المائدة: ١٥-١٦]

والنبي عليه الصلاة والسلام من بيته الرائع البلوي أنه شبه حملة العلم من أمته في الأرض كالنجوم المتألقة في السماء . ففي المسند عن أنس بن مالك ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((إن مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم في السماء يُهتدى بها في ظلمات البر والبحر ، فإذا انطممت النجوم أوشك أن تضل الهداء ، ومadam العلم باقياً في الأرض ، فالناس في هدى ، وبقاء العلم ببقاء حملته ، فإذا ذهب حملته ومن يقوم به وقع الناس في الضلال))

[أحمد عن أنس بن مالك]

انتزاع العلم بقبض العلماء :

أيها الأخوة الكرام ؛ في الصحيحين عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

((إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، فإذا لم يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُعُوسًا جُهَلًا فَسُلْطُوا فَلَفَتُوا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا))

[البخاري عن ابن عمرو]

العلم يُنتزع بقبض العلماء . إذا علينا أن نربي أولادنا على طلب العلم ، علينا أن نهيء الدعاة إلى الله عز وجل ، لأن حاجة الناس إلى العلم ك حاجتهم إلى الهواء ، به يحيون ، وبه يسعدون ، وبه يستقيمون ، وبه يصلون إلى الله عز وجل ، فلا بد من تجديد الدعاة إلى الله . يجب أن نفكر جدياً أن نربي أولادنا على طلب العلم ، يجب أن نطمئن في أن يكون أبناءنا دعاة إلى الله عز وجل ، يجب أن نربيهم التربية الشرعية .

أيها الأخوة الكرام ؛ النبي عليه الصلاة والسلام استعاد من يوم يرفع فيه العلم ، فقيل : يا رسول الله كيف يذهب العلم وقد قرأت القرآن وأقرأناه نساعنا وأبناءنا ؟ كيف يُنزع العلم بيننا وكتاب الله نتلوه ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : هذه التوراة والإنجيل ماذا تغنى عنهم ؟ فسئل عبادة بن الصامت عن هذا الحديث فقال : لو شئت لأخبرتك ، أول علم يُرفع من الناس الخشوع في القلب ؛ لأن العلم علمن ، أحدهما ما كان ثمرته في قلب الإنسان ؛ العلم بالله ، المقتصي لخشائه ، ومحاباته ، وإجلاله ، والخشوع له ، ومحبته ، والخوف منه ، ورجاؤه ، والدعاء له ، والتوكلا عليه . هذا هو العلم النافع ، أن تتعرف إلى الله من خلال الكون ، من خلال أفعاله أن تتصل به ، أن تتوكل عليه ، وأن تخشع له ، وأن ترجو ما عنده ، وأن تخشى عذابه ، وأن تثق به ، وأن تحبه ، وأن تؤثره على كل شيء ، إذا عرفت الله وأقبلت عليه ذلك العلم النافع .

ابن مسعود يقول : " إن أقواماً يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم " .

أما إذا وقع العلم في القلب فرسخ فيه ونفع . وقال الحسن : العلم علمن علم على اللسان بذلك حجة الله على ابن آدم ، وعلم في القلب بذلك العلم النافع . العلم الذي على اللسان أيها الأخوة هو حجة الله لك أو عليك ، أول ما يُرفع من العلم النافع ، وهو العلم الذي يخالط القلوب ، ويظهرها ،

ويبقى علم اللسان فيتهاون الناس به فلا يعملون بمقتضاه ، لا حملته ولا غيرهم ، ثم يذهب هذا العلم الذي على اللسان بذهاب حملته ، فلا يبقى إلا القرآن بالمصاحف وليس ثم من يعلم معانيه ، ولا حدوده ، ولا أحكامه ، ولا حلاله ، ولا حرامه .

الجلوس في المساجد لتعلم القرآن ومدارسته وتعليمه :

أيها الأخوة الكرام ؛ يجب أن يدخل في برنامجاً طلب العلم ، لأن العلم حياة القلوب ، والعلم خير من المال ؛ لأن العلم يحرسك ، وأنت تحرس المال ، والمال تنقصه النفقة ، والعلم يزكي على الإنفاق . مات خرّان المال وهم أحيا ، والعلماء باقون ما بقي الدهر ، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة .

تنمية الحديث :

(وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتَلَوَّنَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِنَّا نَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ السَّكِينَةَ، وَغَشِيتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَقَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ)

[أبو داود عن أبي هريرة]

أول حقيقة نستفيدها من هذه الفقرة من هذا الحديث ، أنها تدل على ندب الجلوس في المساجد لتعلم القرآن ، ومدارسته ، وتعليمه . وفي صحيح البخاري عن عثمان بن عفان رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

(خيركم من تعلم القرآن وعلمه)

[البخاري عن عثمان بن عفان]

خيركم على الإطلاق ولا أحد أخير من هذا الذي طلب العلم وعلمه . قال بعضهم من التابعين : هذا الحديث هو الذي أقعدني في مقعدي هذا في المسجد . ما الذي جعلك أن تجلس على ركبتيك ؟ ربما كان الجلوس في البيت مريحاً أكثر ، على فرش ومتكئات وطنافس ، الذي جعلك تجلس على ركبتيك في المسجد هو هذا الحديث :

(خيركم من تعلم القرآن وعلمه)

[البخاري عن عثمان بن عفان]

أيها الأخوة الكرام ؛ يتوجه بعضهم أحياناً أن حضور الخطبة هي طلب العلم . الخطبة من أجل أن تقنعك بطلب العلم ، ألا ترى أن بعض الناس يعرضون البضاعة في وجهات محلاتهم ، من أجل أن يغرون المشاة في الدخول إلى المحل والشراء منه ؟ إن حضور الخطبة وحدها لا تكفي لطلب العلم ، طبيعة الخطبة لا تحتمل التفاصيل ، ولا الأحكام الفقهية ، ولا التعليقات ، ولا الأدلة، لابد من عرض سريع ، وعرض موجز ، لكن طلب العلم شيء وأن تحضر خطب في الأسبوع مرة واحدة شيء آخر .

سئل ابن عباس : أي العلم أفضل ؟ قال : ذكر الله ، وما جلس قوم في بيت من بيوت الله يتعاطون فيه كتاب الله فيما بينهم ، ويتدارسونه إلا أظلتهم الملائكة بأجنحتها ، وكانوا أضيف الله ماداموا على ذلك حتى يخوضوا في حديث غيره . هم أضيف الله ، وهذا يؤكده الحديث القديسي : ((إن بيتي في الأرض المساجد ، وإن زوارها هم عمارها ، فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارني ، وحق على المزور أن يكرم الزائر))

[أبو نعيم عن أبي سعيد الخدري]

يقول الله عز وجل في الحديث القديسي :

((أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرْتِي . . .))

[منطق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه]

من ذكر الله نزلت عليه السكينة وغشيتها الرحمة و حفته الملائكة :

((...وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِّنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِنَّا نَزَّلْنَا عَلَيْهِمُ السَّكِينَةَ، وَغَشِّيَّنَاهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتُهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَّا بِهِ عَمَلَهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسْبَهُ))

[مسلم عن أبي هريرة]

هذه السعادة التي لا تُوصف ، هذه السكينة سماها إن شئت التجلي ، سماها إن شئت الطمأنينة ، سماها إن شئت التفاؤل ، سماها إن شئت الراحة ، هذه هي السكينة ، سكينة الله. وغشيتها الرحمة. أي سهلت أمورهم ، هم في مساجدهم والله في حوالهم ، السكينة سعادة نفسية ، لكن الرحمة أشمل . قد توقف في عملك ، قد توقف في تجارتك ، قد توقف في اختيار زوجتك ، قد توقف في شراء مأوى يؤمنك ، قد توقف في تربية أولادك ، هذه رحمة الله ، فأنت إذا اقتطعت من وقتك وقتاً تذكر الله فيه في المسجد ، نزلت عليك السكينة الطمأنينة ، وغشيتك الرحمة ، أي عملاً أنت وأهلك وأولادك . وحفتهم الملائكة . أي إذا سهوت الملك يذكرك ، وإذا ضللت الملك يرشدك ، وإذا عملت الخير الملك يطمئنك ، الملك أصبح في خدمتك يدعوك إلى الله ، يحضرك على الإقبال عليه .

من ذكره الله رفع ذكره بين الناس :

آخر شيء : وذكرهم الله فيمن عنده . أما إذا ذكر الله العبد فهذا ذكر عظيم ، لقول الله عز وجل: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَهْمَئُ عَنِ الْفَحْشَاءِ الْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾

[سورة العنكبوت: ٤٥]

قال بعضهم في تفسير هذه الآية : ذكر الله أكبر من ذكرك له .

((أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي وَإِنْ ذَكَرَنِي
فِي مَا لِي ذَكَرْتُهُ فِي مَا لِي خَيْرٌ مِّنْهُمْ))

[متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه]

يرفع الله ذكرك بين الناس . وفي صحيح مسلم :

((إِنَّ الْأَهْلَ الذِّكْرُ أَرْبَعَةٌ ، تَنْزَلُ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ ، وَتَغْشَاهُمُ الرَّحْمَةُ ، وَتَحْفُ بِهِمُ الْمَلَائِكَةُ ،
وَيَذْكُرُهُمُ الرَّبُّ فِيمَا عَنْهُ))

[مسلم عن أبي هريرة]

قال :

((يا موسى أتحب أن أكون جليسك ؟ - فصعق هذا النبي الكريم - قال : كيف أكون جليسك يا رب ؟ قال : أما علمت أنني جليس من ذكرني ، وحيثما افتقدني عبدي وجدني))

[ابن شاهين في الترغيب في الذكر عن جابر]

ربط الدرجات في الآخرة بالأعمال لا بالأنساب :

نتنة الحديث :

((وَمَنْ بَطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسْبَهُ))

[أحمد عن أبي هريرة]

الله جل جلاله ربط الدرجات في الآخرة لا على الأنساب ، بل على الأفعال ، قال تعالى :
﴿فِإِذَا نُفخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾

[سورة المؤمنون : ١٠١]

قد تقع عين الأم على ابنها ، تقول له : يا بني ألم أجعل لك صدر يسقاء وبطني وعاء وحجر يرقى ؟ فهل من حسنة يعود على خيرها اليوم ؟ يقول ابن لأمه يوم القيمة : ليتني أستطيع ذلك يا أماه إنما أشكوا مما أنت منه تشken .

أيها الأخوة الكرام ؛ لما أنزل الله قوله تعالى :

﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾

[سورة الشعراء : ٢١٤]

جمع النبي الناس وقال لهم : يا معاشر قريش اشتروا أنفسكم من الله إني لا أغنى عنكم من الله شيئاً .

((يا عباس عم رسول الله ، يا فاطمة بنت محمد ، أنقذنا نفسيكما من النار ، أنا لا أغنى عنكم
من الله شيئاً))

[مسلم عن أبي هريرة]

((من يبطئ به عمله لم يسرع به نسبة))

[أحمد عن أبي هريرة]

((لا يأْتِيَنِي النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ وَتَأْتُونِي بِأَنْسَابِكُمْ))

[أحمد عن أبي هريرة]

وقد ورد عن معاذ بن جبل رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:
((إن أهل بيتي هؤلاء يرون أنهم أولى الناس بي ، وليس كذلك ، إن أوليائي منكم المتقوون ،
من كانوا وحيث كانوا))

[الطبراني عن معاذ]

وهذا يؤكد قول النبي :

((أَنَا جَدُّ كُلِّ تَقْيَىٰ وَلَوْ كَانَ عَبْدًا حَبْشِيًّا))

[قال السيوطي لا أعرفه ، وقال في الأصل رواه الديلمي وتمام بأسانيد ضعيفة ، ففقط تمام عن أنس سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم من آل محمد ؟ فقال كل تقى من أمة محمد ، ولفظ الديلمي آل محمد كل تقى]

لعمرك ما الإنسان إلا بدينه فلا ترك التقوى اتكللا على النسب
لقد رفع الإسلام سلمان فارس وقد وضع الشرك النسيب أبا لهب

أيها الأخوة الكرام ؛ حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم ،
واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا لغيرنا وسيتخطى غيرنا إلينا ، الكيس من دان نفسه ، وعمل
لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هوها ، وتنمى على الله الأماني .

* * *

الخطبة الثانية :

أشهد أن لا إله إلا الله ولي الصالحين ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ، صاحب الخلق
العظيم ، اللهم صل وسل وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

الحكمة التي أرادها الله من ذكر قصة آسيا امرأة فرعون في القرآن الكريم :

أيها الأخوة الكرام ؛ آية كريمة تلفت النظر وهي قوله تعالى :
﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةً فَرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّي عِنْدَكَ بَيْتٌ فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي
مِنْ فَرْعَوْنَ وَعَمَلَهُ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾

[سورة التحريم: ١١]

ما الحكمة التي أرادها الله عز وجل من ذكر هذه القصة بشكل سريع ؟
الحقيقة أن هذه القصة السريعة - امرأة فرعون صديقة ، قال عليه الصلاة والسلام :
((كَمَّلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ ، وَلَمْ يَكُمِّلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا آسِيَّةً امْرَأَةً فَرْعَوْنَ))

[البخاري عن أبي موسى رضي الله عنه]

منهم امرأة فرعون آسيا - هذه القصة السريعة في القرآن الكريم .

**﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةً فَرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لَيْ عَنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَتَجْنِي
مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلَهُ وَتَجْنِي مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾**

[سورة التحريم: ١١]

تدل على حقيقة كبرى ، وهي أن المرأة أصللة في مجال عقيدتها ، أي أنها ليست تابعة لأحد في عقيدتها كائناً من كان ولو كان هذا الأحد فرعون ، الذي ادعى الألوهية ، وعبد بنى إسرائيل ، أليس هذا تكريماً للمرأة ؟ أية امرأة الآن تقول : هكذا يريد زوجي ، تفترف المعاصي لأن زوجها ضغط عليها قليلاً ، أو ازور عنها قليلاً ، أو هددها بالطلاق قليلاً ، فترتكب المعصية لإرضاء له . أما آسيا . فرعون الذي قال : أنا ربكم الأعلى ، والذي عبد بنى إسرائيل ، والذي ذبح أبناءهم ، واستحيا نساءهم ، لم يستطع أن يخضع امرأته في عقيدته .

معنى ذلك أن المرأة مستقلة استقلالاً تاماً في عقيدتها ، وفي دينها ، وفي علاقتها بربها عن زوجها ، إن أمرها زوجها بالخير هذا شيء رائع ، إن أمرها بالصلاحة ، إن أمرها بالحجاب ، إن أمرها باللتقوى ، جمعت الحسنيين ، أما إذا أمرها بمعصية فهي مستقلة في عقيدتها وفي دينها وفي علاقتها بربها عن زوجها ، لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، والله سبحانه وتعالى يكرمنها ، ويؤيدنها ، يحفظها ويلقي في قلب زوجها احترامها ، وإكبارها ، وهببها ، وربما أخذت بيده إلى الله .

آلاف الأزواج الذين اهتدوا على أيدي زوجاتهم . إيمان الزوجة القوي ووقفتها الصلبة ثلين قلب زوجها .

أيها الأخوة الكرام ؛ هذه المرأة ، امرأة فرعون ، عزفت عن جاه الألوهية الكاذبة ، وعن نعيمها الملق ، وآثارت الجنة ، وهي مغيبة عنها ، ولا ضمانة لها إلا أن الله أخبر بها ، ووعد بها المؤمنين .

أيها الأخوة الكرام ؛ المرأة العاقلة إذا رأت زخرف الدنيا ، إذا رأت مباح الدنيا ، إذا رأت نعيم الدنيا ، تنتظر إلى الجزاء الذي وعد الله به من يعصيه ، وتنتظر إلى الثواب الذي وعد الله به من يطيعه . لذلك الخطأ الكبير أن تنظر إلى الدنيا وحدها ، إن نظرت إليها وحدها تغريك ، أما إذا ضممت إليها الحساب في الآخرة ، ضممت إليها المسؤولية ، ضممت إليها العذاب الشديد ، أو الجنة التي وعد الله بها المؤمنين ، إذا ضممت الآخرة إلى الدنيا ، لا تؤخذ ببهرج الدنيا ، ولا بنعيمها ، ولا بشهواتها .

أيها الأخوة الكرام ؛ قصص القرآن ما أرادها الله قصصاً ، أرادها قوانين ، عرّفنا بالحقائق تعريفاً مباشراً في آيات ، وتعريفاً غير مباشر في آيات ، فهذه القصة تبين أن المرأة - وأقول مطلق المرأة ، أية امرأة - أودع الله فيها العقل والاختيار الصحيح ، فهي مستقلة في عقيدتها ، وفي دينها ، وفي علاقتها بربها عن زوجها ، إذا أمرها بمعصية ، لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، أما إذا أمرها بالطاعة فقد جمعت الحسنيين .

اللهم اهدا فيمن هديت ، وعافنا فيمن عافت ، وتولنا فيمن توليت ، وبارك لنا فيما أعطيت ، وقنا واصرف عنا شرّ ما قضيت ، فإنك تقضي بالحق ولا يقضى عليك ، إنه لا يذل من واليت ، ولا يعز من عاديت ، تباركت ربنا وتعاليت ، والحمد على ما قضيت ، نستغفك ونتوب إليك ، اللهم هب لنا عملاً صالحاً يقربنا إليك . اللهم أعننا ولا تحرمنا ، أكرمنا ولا تهنا ، آثرنا ولا تؤثر علينا ، أرضنا وارض عنا ، اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك ، ومن طاعتك ما تبلغنا بها جنتك ، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا ، ومتعنا اللهم بأسماعنا ، وأبصارنا ، وقوتنا ما أحبتنا ، واجعله الوراثتنا ، واجعل ثأرنا على من ظلمنا ، وانصرنا على من عادانا ، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا ، ولا تسلط علينا من لا يخافك ولا يرحمنا ، مولانا رب العالمين . اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، ودنيانا التي فيها معاشرنا ، وأصلاح لنا آخرتنا التي إليها مردنا ، واجعل الحياة زادنا من كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر ، مولانا رب العالمين . اللهم اكفنا بحالك عن حرامك ، وبطاعتك عن معصيتك ، وبفضلك عمن سواك . اللهم لا تؤمننا مكرك ، ولا تهتك عنا سترك ، ولا تتمننا ذكرك يا رب العالمين . اللهم استر عوراتنا ، وامن رواعتنا ، وآمنا في أوطنانا ، واجعل هذا البلد آمناً سخياً رخيماً وسائراً بلاد المسلمين . اللهم إنا نعوذ بك من الخوف إلا منك ، ومن الفقر إلا إليك ، ومن الذل إلا لك ، نعوذ بك من عضال الداء ، ومن شماتة الأعداء ، ومن السلب بعد العطاء . اللهم ما رزقتنا مما نحب فاجعله عوناً لنا فيما تحب ، وما زويت عنا ما نحب فاجعله فراغاً لنا فيما تحب . اللهم صن وجوهنا باليسار ، ولا تبذلها بالإلتار ، فنسألك شرّ خلقك ، ونبتلى بحمد من أعطى ، ونم من منع ، وأنت من فوقهم ولهم العطاء ، وبيده خزائن الأرض والسماء . اللهم كما أفررت أعين أهل الدنيا بدنياهم فأقرر أعيننا من رضوانك يا رب العالمين . اللهم بفضلك وبرحمتك أعل كلمة الحق والدين ، وانصر الإسلام وأعز المسلمين ، وخذ بيدهم إلى ما تحب وترضى ، إنك على ما تشاء قدير ، وبالإجابة جدير .

والحمد لله رب العالمين